العرب
السبت 2021/09/18
السنة 44 العدد 12183

التعليم قوة من أجل الخير

كيف ينشئ القمع في التعليم مجتمعات عنيفة مستقبلا

الأطفال في المجتمعات العربية يتعرضون للعنف على أيدي من يفترض أن يوفروا لهم الحماية

يتعرض مليار طفل، وهو ما يمثل أكثر من نصف الأطفال في العالم، إلى العنف كل عام. ويخلف التعرض للعنف في مرحلة الطفولة عواقب وخيمة على الصحة العقلية والبدنية وعلى النتائج التعليمية وعلى المجتمع فيما بعد. ويتعرض الأطفال للعنف في الغالب على أيدي من يفترض أن يوفروا لهم الحماية والرعاية، وفي الكثير من الأحيان يُعتبر هذا العنف - وبعضه شديد القسوة - مقبولًا وطبيعيًا من قبل الذين يمارسونه.

لندن – على الرغم من أن نموذج التعليم في معظم البلدان في جميع أنحاء العالم اليوم يقوم على القيم الإنسانية السلمية إلا أن معظم الهياكل التعليمية كانت تاريخيًا ولا تزال عنيفة. لا يزال مليار طفل في العالم يُضربون بالعصا ويجلدون ويصفعون، وفق تقرير لمنظمة اليونيسيف صادر عام 2018. وتشير الإحصائيات إلى أن معظم العقاب البدني الحديث يحدث في المنازل والمدارس.

ولا ينسى علي (43 عاما) تعرضه للضرب المجاني من المعلم أمام رفاقه في الفصل حين كان يبلغ من العمر تسع سنوات لا لشيء إلا لأنه شاهده يلعب في الشارع. سافر علي وبقي أعواما في الخارج وحين عاد إلى بلدته في الشمال التونسي ذهب للبحث عنه. لم ينس ويؤكد أنه لن ينسى أبدا. مات الرجل لكن علي يقول إنه لن يسامحه أبدا.

أشباح الماضي

في مقابل علي يؤكد نجيب "كلنا تم ضربنا ونحن أطفال ولم يؤثر ذلك علينا سلبًا". وفي حين أن البعض قد يكون محظوظًا لتأثره بشكل طفيف بالضرب وهو طفل، فإن العديد من البالغين الذين تعرضوا للضرب في طفولتهم يتدنى لديهم احترام الذات، وتظهر عليهم علامات الاكتئاب والقلق، ويصبحون عنيفين ولديهم مشاعر سلبية تجاه الآخرين.

وقد أظهرت جميع الأبحاث أن للضرب نتائج سلبية على الأطفال. فالضرب يزيد من احتمال نشوء المشاكل العقلية والنفسية، والسلوك الإجرامي، وتعرض الطفل للانتهاك الجسدي من قبل الآخرين في المستقبل، كما أن له آثارا سلبية على نمو دماغ الطفل، وتدني احترام الذات والثقة بالنفس.

ولا يزال الكثيرون في المجتمعات العربية يتبنون نظرية أن "الضرب والصراخ يعلم الأطفال التصرف بشكل أفضل". ورغم ذلك يؤكد خبراء نفسيون أن الضرب والصراخ يرعبان الأطفال ويضغطان عليهم بما يؤثر على مهاراتهم في التعلم، وقد يتصرفون على نحو أفضل لفترة قصيرة جدًا ولكن على المدى الطويل قد يصبحون عدوانيين وتعساء.

ويعارض الكثيرون الضرب لكنهم يرون أنه الصورة الوحيدة للعنف. وعلى عكس ما يظن البعض، الضرب ليس الصورة الوحيدة لاستخدام العنف في التربية، فهناك العنف النفسي/العاطفي: مثل إهانة الطفل وانتقاده بشكل سلبي وتخويفه واستخدام الألفاظ الجارحة معه والزج به في الشجار بين الأهالي.

لا شك أن أكثر أشكال العنف المدرسي فظاظة قد عفا عليها الزمن بشكل متزايد لكن رغم ذلك لا تزال نظرية "التكييف الفعال" التي صيغت عام 1938 (أي أن التعلم تحفزه محفزات التكييف الخام التي تتوقف على المكافأة والتهديد) نموذجًا سائدًا في أنظمة التعلم. حتى أن الكثير في تصميم التعليم الذي يتسم بالعنف بطريقة ما.

عنف قانوني

لا يزال التأديب العنيف في المدارس حقيقة يومية للعديد من الأطفال حول العالم، وهو انتهاك واضح لاتفاقية الأمم المتحدة لحقوق الطفل.

يقضي الأطفال وقتًا أطول في المدرسة أكثر من أيّ مكان آخر خارج المنزل. وبالاعتماد على دراسات أجريت في البلدان المنخفضة والمتوسطة الدخل ينتشر عنف المعلم – الجسدي والعاطفي والجنسي – كأنواع من التأديب على نطاق واسع.

فالعقاب البدني في المدارس قانوني حاليًا في 64 دولة مع نصف أطفال العالم في سن الدراسة. ويستمر العقاب البدني في المدارس في العديد من البلدان حتى عندما يكون محظورًا قانونًا، غالبًا بدعم من الوالدين. ووجدت دراسة أجريت على أطفال في الثامنة من العمر في أربع دول أن الغالبية قد شهدت استخدام معلم للعقاب البدني. فالعقاب البدني للمعلمين في الولايات المتحدة في انخفاض، ولا يزال قانونيًا، ويستخدم في ثلاث ولايات في أكثر من نصف المدارس. والعنف العاطفي مثل الإساءة اللفظية أو الإذلال، أمر شائع أيضًا، وفي بعض الأحيان يمكن للأطفال أن يجدوه أكثر إزعاجًا من العقاب البدني.

يتحدث سامي الذي ترك المدرسة بسبب المعاملة السيئة لمعلمه، ويقول كنت في سن صغيرة وتغيبت عن المدرسة لمدة أسبوعين بسبب المرض، عندما عدت قال لي المعلم "كنت غائبًا لمدة أسبوعين، وكان الفصل يعمل جيدا لأول مرة لماذا عدت؟". ثم أضاف متسائلا "ماذا لديك لتقوله حول هذا الموضوع؟ ما رأيك في حقيقة أنه عندما لا تكون هنا يمكن للجميع التعلم؟" وغرق جميع من في الفصل في الضحك.

تؤكد قدس العوني مدربة التنمية البشرية أن "المعلم يشوه سمعة الطالب بنبذه وتصنيفه، فاتهام الطفل بأنه يمنع الأطفال الآخرين من التعلم هو اتهام مبالغ فيه وعنيف: قد يكون الطفل يحب الدردشة أو العبث في الفصل. إن الاتهام بوقف حق شخص آخر في التعلم أمر شنيع، لاسيما عندما يأتي من الهالة القاتلة والناضجة قانونًا ويؤثر على الشباب الهش وغير المكتمل".

وتسلط مدربة التنمية البشرية الضوء على ما تسميها "العبارات الخرقاء" التي يستخدمها المسؤولون غير المدربين تدريبا جيدا. يمكن أن تكون قائمة العبارات العنيفة المنتظمة على غرار "لقد خيبت أملي"، "كان هذا هو الشيء الخطأ الذي يجب فعله"، "أنت لا تفهم" ، "أنت لا تستمع إليّ"، وما إلى ذلك شكلاً من أشكال العنف العاطفي مما يضر بثقة الطالب بنفسه". وتضيف "يجب ألا ننسى أنه ليس بالضرورة أن يكون محتوى ما يقال عنيفًا في حد ذاته، ولكن، بشكل خاص، حقيقة أنه يقال من قبل شخص بالغ لطفل وفي سياق يوجد فيه اختلال شديد في توازن القوى (بالإضافة إلى فارق السن). ينظر الطلاب عادةً إلى المعلمين، بشكل عام، على أنهم شخصيات يمثلون السلطة، وبالتالي يمكن أن يتعرضوا لضرر نفسي كبير عندما تكون النظرة الموجهة إليهم مرفوضة وحكمًا سلبيًا: يمكن أن يُنظر إلى عباراتهم على أنها حكم باتّ على شخصياتهم". وتشجع المدارس نوعا من الخطاب بحكم وظيفتها وأنظمتها: تقسم الطلاب إلى "جيدين" و"سيئين"؛ ترسل شكاوى حول "عدم تركيز الطلاب" و"إزعاج الآخرين" و"عدم التركيز" و"الاضطراب" و"عدم الاحترام" وما إلى ذلك.

> التأديب العنيف في المدارس لا يزال حقيقة يومية للعديد من الأطفال حول العالم، وهو انتهاك واضح لحقوق الطفل

المعلمون الجيدون يمكنهم إحداث الفرق

عواقب وخيمة

عنف رمزي

تقوم فكرة أن التعليم قوة من أجل الخير على أن التعليم لديه القدرة على الحد من العنف يتم تقديم التعليم بشكل كبير ومفهوم تمامًا في الخطابات السائدة باعتباره شيئًا إيجابيًا بشكل ساحق وسيؤدي إلى عالم أكثر سلمًا وإنتاجية. لا يحتاج المرء إلى الاستشهاد بمصادر لإثبات أن التعليم أمر جيد للمجتمع وهو ضروري لرفاهية الفرد والجماعة. يذكرنا السياسيون والفلاسفة والمشاهير والمفكرون العامون باستمرار بمدى أهمية التعليم، لكن رغم ذلك يشعر الكثيرون بالغربة بسبب تصميمهم، لأن هؤلاء الأفراد الذين من المحتمل جدًا أن يبتعدوا عن النموذج الذي يأمل التعليم في تأسيسه، ويتحولون بدلاً من ذلك إلى مسارات معادية للمجتمع من المحتمل أن تكون عنيفة. يطرح بعض الخبراء زاوية مختلفة إذ يؤكدون أن التعليم عوض منع العنف فإنه من الممكن أن يتسبب بالفعل في العنف.

في الواقع، كل مدرسة تقريبًا على هذا الكوكب تصنف البشر. في بعض بيئات التعلم، يتم تصنيف الطلاب وترتيبهم من مرحلة مبكرة. هذه عملية عنيفة من حيث أنها تجعل البشر شيئًا وتخلق تنافسية عدوانية بينهم، وترسل رسائل حول القيمة الإنسانية المقارنة. بالنسبة إلى الطالب الفردي الذي يكافح مع الأوساط الأكاديمية، فإن الترتيب المدرسي هو الحكم الثقيل، والخوف من الاختبارات، والإذلال من الفشل، والوحدة السوداء لعدم الفهم التي تخيم على رأسه في جميع الأوقات، مما يخلق عالما من الشك.

ويقر خبراء أن الترتيب هو جزء من نظرة عالمية إلى أصول الأساليب الكمية والوضعية الحديثة في التعليم.

ويمكن أن يكمن شكل آخر من أشكال العنف الرمزي في التعليم في اختيار تصميم المناهج الدراسية. ويقول خبراء إنه "ينبغي ألاّ نكون ساذجين لدرجة أن ننظر إلى المناهج الدراسية على أنها منفصلة عن القوى الأيديولوجية والاجتماعية والاقتصادية للزمان والمكان اللذين تعمل فيهما. قد نود أن نعتقد أن اختيارات المناهج الجيدة تستند إلى نظريات التعلم وحدها، لكن هذا تفكير قائم على التمني؛ نظريات التعلم نفسها غارقة في المعتقد الثقافي. فلسفات التعليم هي انعكاسات لأهداف اجتماعية أوسع".

في نهاية المطاف، يؤدي هذا الإكراه الهيكلي إلى الانقياد: يتم تعليم الطلاب الوقوف في طوابير والانتظار والدخول والخروج والوقوف والجلوس عندما يُطلب منهم ذلك، ورفع أيديهم، والهدوء، ونسخ الملاحظات، والعمل صعب. فإذا وقف الطالب وصرخ قائلاً إن هذا فصل بغيض أو يختار الخروج من الفصل، في معظم المدارس، ستكون العواقب وخيمة. هذا لا يتعلق فقط بالانضباط في تربية الأطفال.

ويأمل خبراء التعليم أن قادة المدارس والمعلمين الجيدين يمكنهم إحداث فرق للطلاب. إذ يجب أن يكون هؤلاء المعلمون منفتحون وينقدون أنفسهم بما يكفي لتخيل شكل المدرسة للطلاب الذين يكافحون في السياقات الأكاديمية أو الاجتماعية للتعاطف معهم وليس ليكونوا جزءًا من العنف المسلط على الطلاب. وتؤكد قدس العوني مدربة التنمية البشرية أنه "علينا أن نفترض النوايا الحسنة من الإداريين والمعلمين ولكن لا ينبغي أن نغض الطرف عن سوء المعاملة المحتمل في المؤسسات التعليمية".